

إيلان بابيه: تفكيك الأيديولوجية الصهيونية

إيلان بابيه: فكرة إسرائيل - تاريخ سيطرة
ومعرضة.Ilan Pappé, the idea of israel:
a history of power and knowl-
edge. verso, london - new york.
2014. 318 pages

القارئ المتابع لما يصدر عن القضية الفلسطينية يعرف كاتب هذا المؤلف من إصدارات سابقة له، أهمها، بلا شك، «التطهير العرقي في فلسطين» الذي صدرت ترجمته العربية عن «مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، إضافة إلى «خارج الإطار: القمع الأكاديمي والفكري في «إسرائيل» الصادر عن «دار قدمس». وإيلان بابيه أثبتت كتاباته ليس فقط أنه مؤرخ من طراز رفيع، وإنما أيضاً إنسان شجاع، لأنه يغامر بالوقوف في وجه الصهيونية، في عقر دارها الشرقي القائم في فلسطين، أي في كيان العدو «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، و«الشعب المعجز» الذي بفضل استتال الصحرى القاحلة إلى جنان عدن»، و«أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض» وما إلى ذلك من الشعارات الغوغائية التضليلية.

الشعارات أنفة الذكر، ومثيلاها، هي التي يناقشها الكاتب عبر مؤلفه «فكرة إسرائيل - تاريخ سيطرة ومعرفة» الذي خصصه لتفكيك الفكر أو الأيديولوجية الصهيونية. فمن المعروف أن تيودور هرتسل، الذي يعد أب الصهيونية المعاصرة،

تاريخ سياسي

ميشال كامبس: «الأمة العثمانية» ليست خيالاً

ميشال كامبس: أخوة عثمانيون -
مسلمون ومسيحيون ويهود في
فلسطين مطلع القرن العشرين.Michelle U. Campus, ottoman
brothers: muslims, christians,
and jews in early twentieth-
century palestine. stanford
university press, california
2011. 510 pp.

ميشال كامبس، صاحبة «أخوة عثمانيون - مسلمون ومسيحيون ويهود في فلسطين مطلع القرن العشرين»، أستاذة محاضرة في التاريخ في «جامعة فلوريدا الأميركية»، وموضوع المؤلف الرئيسية تناقض على نحو شبه كامل مع الأطروحات السابقة عن الأوضاع في فلسطين/ العثمانية في العقد الأول من القرن الماضي. في العقد الأول من القرن الماضي، مع أنها تعتمد على مؤلفات صدرت قبلاً عن المادة، إلا أنها تعد عملها إبداعاً دراسياً للفضول من أجل محتوى والمواطنة وشكل الانتماء للأمة عشية تحلل الإمبراطورية العثمانية. ميشال كامبس ترى أن في جوهر الثورة العثمانية ما يمكن تسميته بالعثمانية

طرح مشروعه «دولة اليهود» من منظور استعماري نفعي للغرب، وهو ردد ذلك مرات عديدة في كل كتاباته، لكن العدو يطرح خلفية تأسيس كيانه في فلسطين، وعلى أنقاضها وأنقاض شعبها، على أنه عمل حدائي منسجم مع السائدة حينئذ في الغرب، أي تأسيس الدول القومية، ويتماشى معها. الجهة التي مارست هذا الدور، يؤكد الكاتب، هي الأكاديمية الإسرائيلية، التي عملت على كتاب التاريخ من منظور فكري أيديولوجي وليس اعتماداً على الحقائق. موضوع الكتاب «إسرائيل كفكرة»، يوضح فيه حقيقة أن كيان العدو نتاج استعماري وليس أي أمر آخر. أي إن إسرائيل، كفكرة، عمل رجعي معاد للتطور قائم على الاضطهاد والتمييز العنصري والتفرقة العنصرية وعلى السلب والنهب والغزو.

التيار الإسرائيلي الذي تبنى هذه الأفكار، عُرف بصفة «المؤرخين الجدد» الذين تميزوا بعد توقيع اتفاقيات أوسلو في تسعينيات القرن الماضي وأصدروا مؤلفات عديدة تضع تاريخ قيام الدولة الصهيونية في الإطار الصحيح. لكن كثير من أعضاء هذا التيار، الذي أخضع التاريخ الرسمي، الصهيوني، للمساءلة، لم يتمكن من الصمود حيث غُدّ الأمر خيانة، فارتد منهم من ارتد، وحافظت قلة على موقفها العلمي، ومنهم الكاتب، لكنهم اضطروا لمغادرة «إسرائيل».

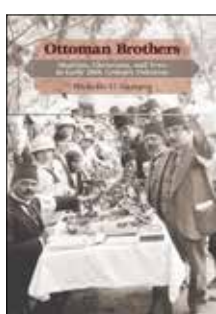
إيلان بابيه يؤكد وجود رأيين متضارين عن دولة العدو، أولهما يقول إنها تمثل الإرهاب والاضطهاد ومصادرة ممتلكات البشر والاستعمار والتطهير

العرقي، وآخر يقول عكس ذلك. من منظور الكاتب، الخلاف ليس على إسرائيل نفسها بل على فكرة إسرائيل. المسألة الرئيسية في المؤلف إذن هي الأخلاقية التي تقف خلف فكرة تأسيس الدولة الصهيونية. خلف الرأيين، يتواجه معسكران. المعسكر المعادي للصهيونية والمعسكر الصهيوني. الأمر الخطير في طرح مسألة «فكرة إسرائيل» أن وجود يهود يشككون في أخلاقية فكرة الصهيونية يشكل أكبر تهديد للدولة. فالمسألة هنا ليست انتقاد هذه أو تلك من الممارسات، وإنما التشكيك في صحة الأسس التي قامت عليها الدولة.

إيلان بابيه يقول إن أي فكرة يمكن تسويقها، لكن ذلك يحتاج إلى تعليبها ضمن رواية، لها بداية. وبداية رواية تشكيل الكيان الصهيوني تكمن في مبرر الوجود (raison d'être). ف «الأمة اليهودية» الموجودة منذ الأزل وإلى ما بعد الأزل، ولدت كمفهوم مثالي، ولذا وجبت المحافظة عليها وحمايتها. الدولة يمكنها الدفاع عن نفسها عبر أدواتها العسكرية والاقتصادية والسياسية، لكن فكرة الدولة تحتاج إلى تسويق أكاديمي لا يمكن تنفيذه عبر القوة العسكرية أو الرشى. لا بد من وجود تسويق يثبت عدالتها وصحتها. إذا كان بإمكان الفكرة - فكرة الوجود - شمل فرد ما أو إقصاءه من الدولة، وتحديد هويته إن كان صديقاً أو عدواً، وعندما يتم تداول الفكرة عبر عمل أكاديمي، أو بالأحرى شبه أكاديمي، فسيصعب على المرء تفادي الانتماء للفكرة، خصوصاً إذا كان الأخير مرفقاً بمجموعة من الامتيازات، الممنوحة أيديولوجياً.

فكرة إسرائيل
عمل رجعي
قائم على
الاضطهاد
والتمييز
العنصري

لذا نرى أن إيلان بابيه يتعرض في الفصل الأول من مؤلفه إلى التحدي الموجه نحو الرواية الصهيونية وخطابها. ولأن فكرة «إسرائيل» مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفلسطين والفلسطينيين، فإن الكاتب خصص الفصل الثاني لموقعهما في الخطاب الصهيوني. الفصل الثالث خصصه للحديث في الرواية الصهيونية عن عام 1948 أكاديمياً وسينمائياً. نقد «فكرة إسرائيل» ليس بالأمر الحديث، بل ظهر منذ ولادة الصهيونية السياسية، وهي، من منظور الخاص، في الأصل الصهيونية المسيحية، ولذلك خصص إيلان بابيه الفصل الرابع لتلك الانتقادات المبكرة.

شجعت القوى
الأوروبية
الانفصالية
المسيحية

أرقاماً عن إحصاء سكان مختلف حارات القدس القديمة عام 1905 ليتبين أن ثلاثاً فقط كانت متجانسة دينياً، بينما حوت الحارات الخمس المتبقية سكاناً ينتمون إلى أديان وطوائف دينية مختلفة. كما تستشهد الكاتبة بالمذكرات الشخصية للفلسطينيين العائدة إلى تلك الفترة والتي عكست ناخياً بين مختلف المكونات الدينية في

بقلم زياد هني

الفصل الخامس يتعرض بإسهاب للعوامل التي قادت إلى ظهور ذلك الجدل بخصوص فكرة «إسرائيل»، التي تبلورت على نحو مكثف بعد عدوان عام 1967 وحرب تشرين عام 1973 حيث ساد الهدوء على حدود دولة العدو، ما أفسح في المجال أمام ظهور التناقضات التي تعصف بالمجتمع.

التأثير العالمي في مسألة الفكرة ظهرت مطلع تسعينيات القرن الماضي، أي بعد هزيمة المعسكر الشيوعي وتحلله، وهذا الموضوع يشكل مادة الفصل السابع التي يكشف في الوقت نفسه النقاشات الفلسفية المرافقة التي تركزت حينها كيف أن القوة أو السلطة أو القدرة، بصفتها أيديولوجية أو موقفاً سياسياً أو هوية، تؤثر في إنتاج المعارف العلمية.

الفصل السابع خصصه الكاتب للحديث في دور ما يسمى المحرقة في تأسيس خطاب فكرة إسرائيل. التحدي الأكبر للفكرة كان مصدر العرب اليهود، أي المزارحيم، وهذا موضوع الفصل الثامن. فصول الكتاب المتبقية تلتفت إلى دور الوسائط الأخرى في الجدل ومنها المسرح والفنون وغيرها. وينتهي الكاتب مؤلفه بالحديث في أسباب هزيمة تيار ما بعد الصهيونية وانتصار الصهيونية الجديدة عليه، وكذلك في الأبحاث الجديدة التي تعالج الصهيونية أخذاً في الاعتبار الاضطرابات في بعض البلاد العربية وظهور الاستيطان الاستعماري. كتاب ثمين على كل مشارك في دراسة كيان العدو ومحاربه على الصعيد كافة، وكذلك صهاينة العرب الجدد الذين كثيراً ما يصمون أذاننا عن ديمقراطية دولة العدو المزعومة.

البلاد. وتؤكد أن علاقات التآخي كانت قائمة بين المزارحيم وبقية العرب في فلسطين، بل إن الصدام بين الطرفين الأول والمهاجرين من يهود أوروبا، الذين تحدثوا بلغات مختلفة أهمها اليديشية التي تعرف بانها لهجة ألمانية تشكل 80% من مفرداتها، منع قيام أي رابطة بينهم. وصل النزاع إلى حد قيام اليهود الإشكناز عام 1867 بالطلب من قيادات فلسطينية إسلامية التوسط لدى الباب العالي، متوسلين الاعتراف بهم ملة قائمة بحد ذاتها. عملت الكاتبة عبر كل فصول الكتاب على تأكيد خطأ الادعاء القائل بأن فلسطين في العقد الأول من القرن الماضي سيطر عليها الاضطهاد والتخلف والكرهية المتبادلة بين الطوائف. على العكس من ذلك، فلسطين مرت في تلك الفترة بحقبة تطور وإصلاح ومشاركة سياسية نشطة من المسلمين والمسيحيين واليهود. فشل الثورة العثمانية هو الذي أدى إلى تراجع في وتيرة الإصلاح وتوحيد مختلف قطاعات سكان فلسطين ضمن الهوية العثمانية المشتركة التي أزعجت القوى الاستعمارية الأوروبية التي عملت على تحطيم ذلك والمشاركة إلى إعادة بناء حدود المشرق العربي على أسس دينية ومذهبية، وهو الأمر المتجدد في المشروع الاستعماري الشرقي الأوسط الجديد.